

البَابُ السَّادِسُ

فِي الْعِرَاقِ

« النَّاسُ سَوَامِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْمِشْطِ لَا فِضْلَ
لِعَرَبٍ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلَّا مَا الْفِضْلُ بِالتَّقْوَى »
حديث شريف

obekandi.com

وبعد فإننا لا نفهم حياة أبي حنيفة إذا لم نفهم حياة العراق وبخاصة حياة الكوفة ، فالإنسان ابن آبائه وأقربائه . وأرضه وسأته وأشياؤه: ليست أعصابه التي يحس بها أجزاء نفسه فحسب ، ولكنه يفكر بما في حدود الزمان والمكان من ماض وحاضر حتى المستقبل . ومن قريب وبعيد حتى ما لا يرى وما لا يدرك .

إن هذه الكرة تدور بالناس وليسوا هم الذين يديرونها . ! وما أصغر ذلك الشيء البديع المسمى بالإنسان إلى جوار تلك الأشياء الجليلة التي تسمى بالدنيا . وإن كانت من دونه ليست هي الدنيا .

ذُرِقَ الفتنه بين المسلمين قبل أن يوارى الرسول في التراب . وتزاحم الأنصار والمهاجرون على الخلافة ، وتولى أبو بكر فعمر فعثمان ثم بايع الناس علياً . وانذلع هيب الحرب الأهلية بينه ومع أهل الكوفة وبين طلحة والزبير ومعهما أهل البصرة ، وأظفر الله علياً في راقعة الحمل فنازلت جيوشه في صفين جنود الشام إذ رفض معاوية ومع أهل الشام أن يبايعوه ، حتى إذا افتقر له ثغر النصر رفع جيش معاوية المصاحف حكماً كتاب الله ، وقيل على التحكيم فخذله الحكمان ، وخرج عليه من جنوده طائفة سميت بالخوارج تسائله : « لم حكمت فيما هو حق لك ؟ » وهزمهم بالنهر وان: وفيما هو يتجهز لحرب معاوية نجحت مؤامرة الخوارج فيه فقتلوه غيلة . وأخفقت المؤامرة في عمرو ومعاوية . واستتب الأمر لمعاوية فأخذ البيعة لولده يزيد بالسيف فرق أعناق الزعماء « الحسين بن علي وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر » ودعا الوفود ليتكلموا فتقدم يزيد بن المقفع فألقى خطبة الخطيب . قال :

- أمير المؤمنين هذا . وأشار إلى معاوية .
- ثم قال : فإن هلك فهذا وأشار إلى يزيد .
- ثم قال : فمن أبي فهذا وأشار إلى السيف .
- قال معاوية : اجلس فإنك سيد الخطباء .

ولقد كان الرجل بحق سيد خطبائه . فتلك لغة السيف ، والسيف أصدق أبناء .
ولما تولى يزيد ثارت المدينة فأسكت جند الشام صوتها بالرماح ، وبعثت الشيعة
(أنصار علي بن أبي طالب) من أهل الكوفة إلى الحسين يبايعونه فسار إليهم مع
أهله ، فقتل هو ، وإخوته ، وأبناء عمه في كربلاء .

وفي سنة ٦٤ سارت جنود الشام إلى مكة فتقاتل عبد الله بن الزبير . إذ بايعه
أهل الحجاز ومصر والعراق واليمن ، أما الشام فتولى عليها مروان بن الحكم ثم ابنه
عبد الملك بن مروان . وولى عبد الله بن الزبير على الكوفة المختار بن عبيد ثم عزله بأخيه
مصعب بن الزبير ، ودعا المختار بن عبيد بالكوفة للعلويين (لمحمد بن الحنفية أخ
الحسين) فقتل . وسار عبد الملك بن مروان بجيشه إلى العراق ومعه الحجاج بن
يوسف الثقفي ، فما هو إلا أن التقوا فحولت جموع الكوفة برؤوسها ومالت إلى عبد
الملك ، وقتل مصعب بن الزبير وقدمت رأسه هدية لعبد الملك !

وتولى الحجاج على العراق بعد قتله عبد الله بن الزبير بمكة فأخذ يبرى الرقاب
حتى سالت الدماء إلى أبواب المسجد والمسكك ، وخرج عليه ابن الأشعث ومعه
العلماء ، ومنهم الشعبي فقيه الكوفة ، وسعيد بن جبير فقيه البصرة ، وعبد الرحمن
ابن أبي ليلى . وتراحف أجمعان في دير الجماجم . وانتصر الحجاج فدخل الكوفة
وأدار وجهه يحاسب العلماء . فعفا عن عفا عنه كاشعبي وأهدر دم من أهدر دمه
كابن جبير فضرب عنقه .

وآلت الخلافة بعد عبد الملك إلى ابنه الوليد فكان ميمون الطائر بما رسع من
رقعة الإسلام في أفريقية .

وفي سنة ٨٥ فتحت جزائر البحر الأبيض . وفي سنة ٨٩ فتحت صقلية وفي سنة
٩٣ خفقت أعلام الإسلام على سواحل الأطلسي في الأندلس ، ووقف موسى بن
نصير في ربوعها يفكر في فتح أوربة . فأشاروا عليه بالتلبث : فكث يقول : أما
والله لو انقادوا إلى لقدتهم إلى رومية !

وفي الشرق بلغت كتائب المسلمين الصين .

وفي ولاية هشام بن عبد الملك ثار زيد بن علي بن الحسين قتل . وفي سنة ١٢٥
خرج ولده يحيى بن زيد فقتل في خراسان .

وفي سنة ١٢٧ خرج الضحاك بن قيس على رأس الخوارج فاستولى على الكوفة
وئارت الثائرة بين بني أمية وانتهت بتولية مروان بن محمد سنة ١٢٧ . فلم يكدهم
الضحاك حتى ثار عليه أبو مسلم في خراسان ودخل مروان سنة ١٣٠ ونيسابور سنة
١٣١ . وجاء رسله إلى الكوفة فولوا أبا العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس
سنة ١٣٢ ، وكان التيار في الكوفة يجرى نحو أولاد علي بن أبي طالب فحواله أنصار
العباسيين إلى بني العباس . وهرب مروان إلى مصر حيث قتل .

وفي سنة ١٣٦ تولى أبو جعفر المنصور الخلافة حتى مات سنة ١٥٨ بعد وفاة أبي
حنيفة بثماني سنوات .

• • •

في هذه الصورة المتحركة عرض لأقطار العالم الإسلامي وبلدانه : أما المدينة
فغنية بتاريخها عن التعريف ، وأما البصرة فقد أمر بإنشائها الفاروق عند ماتى دجلة
والفرات (سنة ١٤ - ١٧) لتكون معسكراً تلجئ إليه الجيوش من برد الشتاء ، فبنى
أبو موسى الأشعري مسجدها من اللبن ومرعان ما احتدم فيها الشغب وازدهرت فيها
الحضارة ، وفي سنة ٣٦ وقعت في ضواحيها وقعة الحمل ، وفي سنة ٥٠ بلغ من
نماها أن ناهز عدد سكانها ثلثمائة ألف .

وفي (سنة ١٧ - ١٩) أمر الفاروق سعد بن أبي وقاص بعد موقعة القادسية أن
يبنى الكوفة فأقيمت في موقع صحى على الفرع الغربى للفرات لا يفصل بينه وبين
المدينة جسر ولا بحر ، وصارت ملتقى الطرق ومفتوحة بين الشرق والغرب ، وبنى سعد
مسجدها في وسط المدينة وبنيت إلى جواره دار الإمارة . فلم يكدهم يتصف القرن
حتى صارت أبنيتها من اللبن بعد أن كانت خياماً وأكواخاً : وعمرها أقوام من كل
جنس . من شاميين ونبطيين (شمال شبه الجزيرة) وبدو وفرس ، ولم تكدهم حتى
سرت فيها روح الشغب فغير عمر ولايتها في السنوات الأخيرة لحكمه ثلاث مرات .

كأن أول أنصار على ولم تزل تتداولهم المهازح حتى إذا قهرهم الحجاج عذاب الهون
نحواً من عشرين عاماً (سنة ٧٥ - ٩٥) ولم تذوق الطمأنينة بعد ذلك . حتى إذا

ظهر العباسيون أقام أبو العباس بالأنبار ، وأقام المنصور بالهاشمية ، مثلما أقام الحجاج من قبل بواسط ، بعيدين عن الكوفة وشغبها وشقاقها ، وهى قصبية الإقليم فى عهد بنى أمية ، وفى عهد السفاح والمنصور حتى بناء بغداد .

أراد عمر أن تكون الكوفة عاصمة للعراق بدلاً من المدائن ، وعمرها والبصرة بأفواج من المؤمنين الأولين من أصحاب الرسول ليشعوا الحضارة الإسلامية العربية فى الإقليم . لكن العراق صنع بالوافدين إليه وبمن أنسلوهم ما يصنع الإقليم العظيم ، فصيرهم عراقيين بعد أن كانوا غرباً وإن كانت تحمل حضارتهم وشخصيتهم الطابع المشترك الأعظم . طابع الإسلام .

شكت الكوفة منشئها وبطل العراق سعد بن أبى وقاص إلى عمر قائلة إنه لا يحسن أن يصلى ! ! وشكت البصرة أبا موسى الأشعري لأن له غلاماً ختاراً (غادراً) هو كاتبه زياد بن أبية إذ كان له مائدة وبرذون . وعزل عمر أبا موسى وشاطره ماله . ودعا سعد على أهل الكوفة ألا يرضيهم الله عن وال ولا يرضى عنهم والياً .

وكأنتما تفتحت لهذا الدعاء أبواب السماء !

شكوا عمار بن ياسر الذى مات محارباً فى صفين وهو فى التسعين . وشكوا المغيرة ابن شعبة . وطرودوا سعيد بن العاص .

لما قدموا على عمر يشكون سعداً - قال : « من يعذرنى من أهل الكوفة - إن وليتهم التقى ضعفوه وإن وليتهم القوى فجزوه » . قال رجل : « أنا أهلك يا أمير المؤمنين على القوى الأمين » ، قال : « من هو » قال : « عبد الله بن عمر » (ابنه) قال : « قاتلك الله : فئذ اليوم لا أسمىك إلا المنافق » ، وقال : « المغيرة يا أمير المؤمنين إن التقى الضعيف له تقواه عليك ضعفه . والقوى الفاجر لك قوته وعليه فجوره » - قال : صدقت فأنت القوى الفاجر . فاخرج إليهم » . وفى فتنه ابن الأشعث بدل رجال الشورى نصحهم لعبد الملك بن مروان بعزل الحجاج عسى أن يصلح بال أهل العراق . لكن الحجاج كان بهم خبيراً فكتب إلى الخليفة : « والله إن أعطيت أهل العراق نزعى لا يلبثون إلا قليلاً حتى يخالفوك . ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك . ألا ترى وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفان

فلما سألم ما يريدون قالوا نزع سعيد بن العاص ولما نزعه لم تم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه؟ إن الحديد بالحديد يفلح .

وهكذا طفق مرجل الكوفة دائم الغليان ، قرنًا وربع قرن من الزمان ، واستفحل نفوذ الخوارج بالعراق عامة فظلوا يرون خلافة الأمويين غصبًا وأمروا أمراء منهم خاصة .

أما شيعة علي فاتخذوا في الكوفة والبصرة مراكزهم الرئيسية . وما يزال لهم لأن عشرات من الملايين في العالم الإسلامي . كانوا يرون أن عليا أحق بالخلافة من الخلفاء السابقين . ويقولون إنه وصى النبي على المسلمين . وتطورت الفكرة فصار منهم من يقول إنه معصوم ، وغلا البعض فألوه ، وانشعبت الشيعة شيعًا وأفراقًا حاربها بنو أمية حربًا ضروسًا ، فقتلوا أولاد علي وأسباطه كل قتلة . حتى كان الأمير الأموي يقول : لأن يقال كافر أو مشرك خير من أن يقال من نمل علي !

وظلت المدينة خاصة والحجاز عامة معتزتين بأهل بيت الرسول .

وفي عام مائة كانت ظلال الأمويين آخذة في الانحسار . وشرعت الرياح تجري رخاء لسفائن الشيعة يزجيها دعاة بنو العباس . فألف علي بن عباس جمعية سرية ذات شعبتين تدعو لأهل بيت النبي ، وكانت الكوفة مقر إحدى الشعبتين ومقر الشيعة الثانية . خرسان . فلما دخلت جيوش أبي مسلم إقام العراق كانت الكوفة قصبة المدافعين كما كانت نخباً الثوار .

يبيع لأبي العباس بالخلافة حيث تلاقت بالكوفة الأولى المظفرة لقراده . فأخذ يعمل في ظمأ لا يرتوي ليكون جديراً في التاريخ باسمه (السفاح) . وراحت سيوف العباسيين تمصده الرءوس وتقذف الجماجم ، ولما لم تروها بجمار الدم شرعت تنبش القبور . بدءوا بقبر معاوية وثنوا بقبر يزيد ، واثنوا إلى قبر عبد الملك ، فلم يجدوا ما يصنعون فيه مثله . ثم وجدوا ضالته في قبر ابنه هشام . فألقى السفاح جثته لم تبل بعد فضر بها بالسياط . . وصلبها . . وحرقتها . ثم ذراها في الهواء .

وفي هذه الحزرة التي ملأت الخياشيم برائحة الدم ، عبر النهر سباحة إلى أفريقية فتي لم يكذب يطر شاربه بعد ، هو عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك .

عبر البرزخ إلى أسبانيا سنة ١٣٩٩ ليتمكن في اثنين وثلاثين عاماً لحضارة وضع قواعدها موسى بن نصير وطارق بن زياد . فأنشأ - على التعبير الحزبي - رأس جسر حاول الشرق أن يغزو منه الغرب وأن ينقل خلال البحار ، والأجيال ، تلك المدنية التي ازدهرت في فجر التاريخ في أثينا وإسبارطة وفارس وروما وبيزنطة ، فانبعثت حركة الإحياء العلمي RENAISSANCE من مرقدها بعد أن مرت في طريقها - كالمسالات وكالبرد المائبة والهوائية - بالشرق الأدنى ودمشق والقاهرة والقيروان وما إليها .

ولقد يخيل إلى الناظر أن هذه القلاقل كادت تنزف دم الأمة ، لكنها في الواقع كانت اهتزازات الجسم الذي يحاول أن يستقر ، ليستمر ، وامتحاناً لقرى أمة جمع فيها الدين الحديد من كل عنصر ، فثبتت على الامتحان ، وكان ظهور الدولة العباسية آية على ما في ذلك الثبات من فيض القوة ووفرة الفتوة .

كان القرن الأول استجماعاً لقوى الأمة ، واستعداداً لعهددها الجديد ، فلقد أدت الإمبراطورية السياسية التي وطد أركانها معاوية وخلفاؤه رسالة هي حسبها ، وأن للطور الثالث من تاريخ الأمة أن يجيء وهو طور الحضارة كما سماه ابن خلدون . لم تكن هذه الهزات الدموية التي ألفتها كيان الأمة إلا كأوجاع المخاض تبشر بالوليد الموعود ، لتخلد حضارة الإسلام نفسها في الوجود ، بأسلوب جديد .

وإذا كانت دولة بني أمية قد نشرت ألوية الإسلام بالغزو ، فقد كان على الدولة الجديدة في وديان دجلة والفرات أو دولة الأندلس أو الدول الناشئة على ضفاف النيل وساحل البحر الأبيض ، أن تنشر الحضارة الإسلامية بفتوحات الفكر ، وأن تبعث بآثارها في مهاب الرياح الأربع .

• • •

فتعالوا إذن أيها المفكرون ، واحذوا إثر واحد ، واسكبوا في تيار الحضارة الذي لا يتوقف إلا ليندفع ، تلك الفيوض الدافقة من النور . وليحس كل منكم ذلك الحنين المعذب إلى الابتكار . وليكن منكم الغواصون في أعماق الحكمة والعلم . . . لقد دنت فترة انتقال وأنتم همزة الوصل ، فصلوا الماضي بالحاضر ، وقولوا كلمة الفكر ، إن كلمة الفكر هي العليا .

انطلقت العتول الإسلامية ظمأى تكاد تموت من الصدى . بدأت بالترجمة ، فنقلت إلى العربية من اليونانية والسريانية والفارسية والنبطية والهندية ، ولئن صح أن إسطفان وماريانوس وابن أجمر قد ذكروا العرب في أواخر أيام بني أمية بالعلم اليوناني حتى جعل عمر بن عبد العزيز ابن أجمر رئيساً للمصلحة الطبية ، وأن خالد ابن يزيد كلف البعض بنقل بعض كتب الصنعة ، أو وجد عرب يجيدون اليونانية كصالح بن عبد الرحمن وعبد الله بن عبد الملك أو سلم أحد رجال هشام بن عبد الملك ، إن هؤلاء لم يكونوا إلا طلائع الركب الضخم ، الذي بدأت على يديه رحلة العلم ، من العالم القديم إلى العالم الجديد في عهد المنصور يتقدمه جرجس بن جبرائيل وقد كان طبيباً للمصور ولييماستان جند يسابور . ثم توالى الأسماء ترى : قسطا بن لوقا وسيد النقلة روزبة (ابن المقفع) ينقل كليلة ودمنة وخدايانمة (السير) . والحسن بن سهل والبلاذري ، ينقلون من الفارسية ، ومنكة وابن دهن الهنديان يتقلان من الهندية ، وابن وحشية ينقل من النبطية كتباً في الفلاحة . وأخذ الرشيد يبعث الرسل في كل مكان ليجيئوه بالكتب ليحربوها ، وجاء المأمون بعده يصنع أكثر مما صنع ، وانتقل الروح العلمي إلى وجوه الدولة وإذا ببيت كبيت بني هاشم المنجم في منتصف القرن الثالث يشجع على العلم رجالا كحنين بن إسحاق ، وحبيش بن الحسن ، وثابت بن قررة ، يدفع لهم شهرياً خمسمائة دينار للترجمة والتعريب ، كما أنشأ الرشيد (بيت الحكمة) وعين فيه الفضل بن نوبخت للقسم الفارسي (الكتب الفارسية) ، وابن ماسويه من جامعة جنديسابور للقسم اليوناني (الكتب اليونانية) للمحافظة على ما يترجم من كتب ونشر ما تتضمنه المترجمات من علوم ، وأنفذ إلى بلاد الروم مسلماً صاحب بيت الحكمة والحجاج بن مطر وغيرهما ليجتثا عن طرائف الكتب .

وهكذا أضيف إلى ثروة الأمة التي كان ينحصر تراثها العلمي — في الجاهلية — في علم النجوم والقيافة والآداب والأنساب رءوس أموال ضخمة من الرياضة والفلك والمنطق والفلسفة والطب والهندسة والموسيقى والجغرافيا والنبات والحشرات وغيرها . وتعرف العرب إلى فيثاغورس وإقليدس وجالينوس وبطليموس وأفلاطون وسقراط

وأرسطو ، وإلى النظم السياسية والإدارية . وانطلق الفكر الإسلامى فى حرته إلى أبعد الحدود حتى ترى بيتاً كبيت (أبى الجعد) فيه ستة إخوة . اثنان شيعان واثنان مرجئان واثنان خارجيان .

وكما اهتم المنصور بالفلك والطب ، عنى الرشيد بالرياضيات وأولع المأمون بالمنطق والفلسفة ، وأضيفت إلى أسماء المترجمين السابقة أسماء آل بختيشوع وأبى بشر متى بن يونس ، ويحيى بن عدى وإسطفان بن باسىلى يتقاون من السريانية إلى العربية . وعلى بن زياد اليمنى وإسحاق بن زيد ينقلون من الفارسية . ثم انقل العلم كدورة الشمس من المشرق إلى المغرب . فظهر ابن باجه وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وأمثالهم ، ولم تبق الترجمة سبيلاً للعلم وحده بل أصبحت وسيلة للمعاش . فإذا بابن الهيثم يبيع فى كل عام نسخاً ثلاثاً من نسخه هى (إقليدس) و (المتوسطات) و (المجسطى) بمائة وخمسين ديناراً يعيش منها طول العام .

ولم تكن الأعوام المائة الأولى من تاريخ الدولة العباسية التى وصلت العرب بالعلوم الأجنبية قد بدأت بعد حين كانت النهضة الفقهية التى يحمل أعلامها أبو حنيفة قد سجلت روائع آياتها فى جامع الكوفة ، ولم يكن المنصور قد مرض بعد فى سنة ١٤٨ مرضاً ظنه مرض الموت فاستقدم لعلاجيه (جورج أو جرجس) من جامعة جنديسابور وأبل على يده فأنزله وعلماء جنديسابور أرفع المنازل فى بلاطه ، وورث حفيده جبريل هذه المنزلة فى بلاط الرشيد حفيد أبى جعفر . وإذا كان جرجس أول من ترجم للمنصور فإن أبا حنيفة قد أنهى رسالته فى سنة ١٥٠ قبل أن يقدم جرجس تراجمه للعقول .

فالفقه الإسلامى الذى دوى صوت إمامه فى النصف الأول من القرن الثانى كان أثراً للوثبة الإسلامية الخالصة التى وثبها أبو حنيفة .

وإن المرء ليتساءل لماذا سبق الفقه فى ميدان النهضة الفكرية كل العلوم ؟ وبالجواب عن ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت تهتف بها غريزتها أن تخلد نفسها ، وليست سبيلها إلى ذلك التخليد عمارة أو نحتاً أو تصويراً كما

صنع الرومان والمصريون واليونان . فتلك كانت مفاخر دون مفضرة الأمة الإسلامية التي يحويها كتابها من شريعة وعقيدة ، فكان طبيعياً أن تندفع مواهب الأمة الكبرى نحو أول مقومات الإسلام وهو الشريعة ، وبهذا تناهت إلى حلقة الكوفة أصوات الفقهاء السابقين والمعاصرين فرددوها بلسان الزعيم الفكري الذي قدرته العناية الإلهية لنصرة الدين ، وتلت هذه الوثبة الفكرية الوثبة السياسية التي عاصرت في تحضيرها وظهورها حياة أبي حنيفة العلمية ، وهي قيام الدولة العباسية ، ثم انبعاث تلك الفكرة التي خلطت بها الحضارة العباسية نفسها بإيذاء المدينة التي لم ير مثلها الزمان إلى ذلك الزمان (بغداد) :

ليست مصادفة تلك التي جعلت بالعراق حلقة أبي حنيفة كالجامة في النصف الأول من القرن الثاني بالكوفة حيث كان محمد بن علي بن عبدالله ابن عباس وابنه إبراهيم الإمام من بعده يمهدان للدولة الجديدة في الكوفة وفي حراسان حيث الكثرة الغالبة من الموالى والفرس :

وليست مصادفة أن يكون فقه الدولة الجديدة هو فقه مدرسة الكوفة ، وأن يعمد أبو جعفر إلى الانتفاع به في المدينة الجديدة فيكره أبا حنيفة على التعاون معه ، ويتأهى الرشيد في الإعجاب به فيكلل بالمجد هامات تلاميذه :

ليست هذه كلها مصادفة ، ولكنها رواية الزمن متصلة الحلقات والظواهر بسطرها بالوقائع ، ويترك للوقائع الكلام . وإنها يد العناية تحرك الإنسانية نحو مصابرها المحتومة . تريد لرسالة الإسلام أن تصل بين عهدى الحضارة .

كانت حضارة العصور الأولى توشك أن تكون حديثاً في التاريخ ، وتوسطت عصور الظلمات تكاد تطمس شعاع الماضي في ظلام الليل المتكاثف ، فحملت الحضارة الإسلامية إلى العصور الحديثة أنوار القرون الأولى . ولم يخضت صوت المسلمين من جامعات الأندلس عند برزخ جبل طارق في الغرب سنة ١٤٩٣ إلا بعد أن كانت دولة إسلامية كبرى قد تسلمت برزخ القسطنطينية في الشرق من نحو نصف قرن سنة ١٤٥٣ : وإذا كان فتح ، المسلمين للقسطنطينية يؤرخ ببدء عصر النهضة والإحياء RENAISSANCE

في العصور الحديثة ، فأى مجد للإسلام ذلك المجد ! وأين منه أى مجد سياسى
وفتح حربى !

هذه النصرة التى نصرت بها الدولة العلم فى المائة الأولى من حكم بنى العباس ،
لم تكن لها مثابه فى العهد الذى كان أبو حنيفة يدرس العلم فيه وفيما قبله للناس .
كان السفاح وأبو جعفر فى العهد الذى عاشه أبو حنيفة فى حكميهما ،
فى شغل بالحرب مع خصومهما .

فالنهضة التى نهضها أبو حنيفة نهضها وحده . ولحساب الله لا لحساب
أحد ، وكانت نهضة أصيلة مقطوعة الصلات بالترجمات .

ولئن كان الطب قد استفاد مما ترجم فى عهد المنصور أو تولته أيدي
الأجانب ، أو كانت الفلسفة وغيرها قد حدثت مع ما ترجم من فلسفة أجنبية ،
إن الفقه الإسلامى كان له من أصالته ونظم شريعته ومميزاتها الاجتماعية ،
والاقتصادية والسياسية ، وخصوبة تربته ووفرة منابعه ، مافاق ألواح الرومان
الائتى عشر ، وشرائع صولون وليكرج ، فلم يلتفت إلى ألواحهم أو شرائعهم
أحد ، ولم يترجم منها مادة ، وبقي الفقه فى صفاء جوهره نقى الصفحة خالص
الديباجة . تجمعه العروة الوثقى فى جملته وأجزائه بأصوله الجامعة فى الكتاب
الكريم وسنة الرسول .

زعم بعض المستشرقين أن هناك « آثاراً لا تنكر Indéniable » من
تأثير الفقه الرومانى فى الفقه الإسلامى ! وهو زعم يظهر بطلانه من أول نظرة
بالنسبة لأبى حنيفة خاصة ، والفقه عامة ، وإذا كان لأبى حنيفة بصر
بالفارسية ، أو كانت تحيط به ثقافة منحدره من المحيط الجغرافى والاجتماعى
الذى يتوارثه العراق عن فارس ، فإنه لم يظهر أثر . للمترجمين أو للمترجمات
فى حياته مع اتساعها وطولها وكثرة الرحلات والاتصالات ، ولقد كان الفقه
فى حلقة وفى سائر الخلق بالمسجد الجامع إسلامياً صراحاً فى منابعه وسواقيه ،
لم يأخذ عليه أحد من خصومه أو مؤرخيه أنه تأثر بشئ أجنبى أو عالج
أثراً أجنبياً .

وإذا كانت معاملات الفرس قد تأثرت بمعاملات الرومان أو اليونان عن طريق الشام . فلا أثر للفرس ولا للرومان في الشريعة . ولا يسمع القول بوجود التشابه أو التأثير إلا بعد أن تقدم الخصوصيات المتشابهة التي يستند إليها الزاعمون في الأصول والفروع ، وفي اتجاهات التشريع ، وهو مالا يسوقه إلينا القائلون بوجود هذه الآثار « التي لا تنكر » : كما لم يدلونا على القواعد المشتركة والتفاصيل المتفقة ، حتى تقبل الدعوى شكلا ، لتناقش موضوعاً ، كما يقول رجال القانون .

وليس بسائغ أن يتلقف المؤرخ جزئية من الجزئيات ، أو شبهة أو صدفة في مظاهر التفكير ، ليقال من جرائمها بتشابه الفقه في الشرائع . فكل شريعة تقوم على قواعد من أصول التفكير البشري توافق العقل . وإذا تشابه العرف في البلدين فتشابه حكمه فيهما فلا وجه للقول بتشابه الشرائع دون الالتفات لتشابه العادات :

ومن المسلم أن صلة الترجمة العلمية المؤكدة باللغة اليونانية والسريانية لم تظهر في عهد أبي جعفر أي بعد سنة ١٣٦ حين كانت مدرسة أبي حنيفة قد بلغت أوجها في مسجد الكوفة ، وكان أستاذها في أواخر عقده السادس يرأس الحلقة نحو ستة عشر عاماً :

أما الشافعي فقد ترعرع بين الشام والحجاز واليمن والمدينة ومكة ، حتى إذا انتقل إلى بغداد ومصر في خاتمة القرن لم يظهر على فقهه أثر من الآثار التي ادعاه المستشرقون : والذين تتبعوه في دراساته ومقولاته يدركون كيف كانت كلها إسلامية خالصة :

فأما مالك فكانت عمدته السنة وفقه المدينة :

وأما ابن حنبل ففقهه كله السنة .

وفي سنة ١٩٣٧ قرر مؤتمر لاهاي ما قرره مؤتمر واشنطن أخيراً في سنة ١٩٤٥ ، أن الشريعة الإسلامية مصدر للقانون مستقل عن مصادر اليونان والرومان :

• • •

بازرادشتية أو بالمسيحية ، ومانويون يدينون بمزيج من الزرادشتية والهندية والمسيحية ، وحرانيون لهم عقائد خاصة ، كما تسربت الحضارة اليونانية إلى الإقليم منذ غزوات الإسكندر : وبعد أن أنشأ كسرى مدرسة جنديسابور في كوزستان استمرت المدرسة ثلثمائة عام برغم زوال ملك الفرس وقيام الحضارة الإسلامية ، فظلت تدرس الطب والفلسفة اليونانية ، وساعد رجال من سوريا في نقل أطراف من الحضارة اليونانية بدراستهم لأرسطو وكتب الطب وكتب الحساب لأبوقراط وجالينوس ودسقوريدس وإقليدس وأمثالهم ، ونقلهم مؤلفاتهم إلى السريانية . كما ساعد أهل حران على التوسط بين الحضارة اليونانية والعرب عامة لاحتفاظهم بالدين المسيحي وبالصلة ببيزنطة . وبهذا كانت مدرسة جنديسابور محط أنظار أهل حران وقساوسة شبه الجزيرة ، كما كانت القناة الفكرية التي وصلت بين العرب والحضارة اليونانية خلال فارس .

في هذه البقاع ترعرت حضارة يانعة تكتنفها ديانات متتابعة : الزرادشتية تسبق المسيحية بنحو ستة قرون : واليهودية في الشمال تسبق الزرادشتية بنحو تسعة قرون : ثم المسيحية تنزل قبل الإسلام في شمال جزيرة العرب بنحو ستة قرون أخرى : كأنما اختصت السماء بأسرارها غرب آسيا في تلك القرون العشرين :

وكان العراق محسوباً على فارس وموصولاً بها على الوجه الذي بينا ، بحكم تاريخه وموقعه وجنس سكانه وطبيعة إقليمه ، فتجمعت فيه أخلاط من المدينيات والجنسيات والآراء لم تشهد مثلها جزيرة العرب : وأرهف حس بنيه ذلك الانفعال المستمر في حدة وعرام لم يشهدهما بلد إسلامي ، فعلم العراقيين أن الحياة كفاح مستمر ، لا يسكن إلا أن تسكن النفس سكونها الأبدى :

وإذا عاشت الجماعة في انفعال وانبعاث مستمرين برزت - كالفرد - ملكاتها إلى الوجود فاستثمرت كل ما في كيائها من قوة وفتوة :

ويمكن لتلك النزعات في نفوس أهل العراق دين يجب الجهاد في سبيل الاعتقاد .

احتفظ العراق دائماً بشخصيته حتى إن عمر لما دون الواويزن كانت لغة ديوان العراق هي الفارسية إلى أن نقله الحجاج في سنة ٧٨ إلى العربية ، ومع ذلك ظلت الحسابات بالفارسية ، وبقى أغلب كتاب خراسان مجوساً : أما في خراسان - وكانت تحكم من العراق - فقد كان نصر بن ميسار أول من نقل الكتابة إلى العربية من الفارسية في أواخر أيام بني أمية . ولما أنشئت البصرة كان الناس يتكلمون فيها بالفارسية ، فعنيت بالنحو واللغة لحاجة الناس فيها إلى العربية . كما غدت مركز حركة علمية تجلت في علم الكلام وفي الاعتزال . على رأسها الزعيم الجسور الحسن البصري ، وقد قيل إن الحكمة التي رزقها جاءت من أمه كانت أمه تخدم أم سلمة زوج النبي فكانت أم سلمة تناوله ثديها إذا بكى .

ولما جاء العراق بالدولة الجديدة وأنشئت بغداد آذنت الدنيا بعهد جديد وبق العراق جوهرة التاج ومفخرة الخلفاء ، حتى إن المأمون بعد نحو قرن من خلافة بني العباس لياهاى به عجائب الكنانة !

جلس في تواضع العالم بين إخوانه العلماء - وكان يسميهم إخوانه - إذ قدم إلى مصر في أول سنة ٢١٧ وقال : لعن الله فرعون حيث يقون : أليس لي ملك مصر . فلورأى العراق وخصبها ؟ فرد سعيد بن عفير عن مصر بقوله : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا . فإن الله عز وجل قال : (ودمرنا ما كان يصنع يرمعون وقومهم وما كانوا يعمرشون) ، فما ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذا بقيته !!